تصدير

الحمد للّه رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

في هذه الظروف الحرجة التي تجتازها أمتنا تصبح الكلمة أمانة كبيرة ومسؤولية ضخمة، لا بد من فقهها ومعرفتها وتقديرها حق قدرها، وإلا فرب كلمة لا يلقي لها الرجل بالاً تهوي به سبعين خريفاً، ورُبّ كلمة لم يلق لها قائلها بالاً مزقت أحباباً، وشتّت أسراً، وأضرّت وحطمت مفاهيم، وشوشت على ثوابت، وربما أثبتت متغيرات، إلى غير ذلك من قضايا لا يدركها إلا من فقه قيمة الكلمة، وأدرك أهميتها وألمّ بآثارها.

ومن هنا يصبح الحديث عن نظم خطاب الفكر والأطروحات الفكرية حديثاً ذا شجون، له أهميته البالغة وخطورته الكبيرة.

ويسر «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» أن يقدم هذه الدراسة المهمة في إصلاح الفكر الإسلامي، مساهمة منه في بناء فقه الكلمة، والوعي على مسؤوليتها، وإدراك أهميتها في هذه الظروف التي تجتازها أمتنا.

ويسعد المعهد أن تكون هذه الدراسة هي الحلقة الثانية في هذا المشروع المبارك بإذن الله، الذي نرجو له الاستمرار والدوام، وقد كانت الحلقة الأولى عن «أبعاد غائبة عن الخطاب الإسلامي المعاصر»، وهذه الحلقة الثانية في الحديث عن «إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظم الخطاب»، وكلاهما من تأليف الدكتور طه جابر العلواني، جزاه الله خيراً ووفقه لما فيه خير المسلمين.

وقد يجد القارئ العزيز اتفاقاً في كثير مما ورد في هذه الرسالة وما ورد في كتابنا «إصلاح الفكر الإسلامي بين القدرات والعقبات: -ورقة عمل-» الذي أصدره المعهد العالمي للفكر الإسلامي في سلسلة: «إسلامية المعرفة» رقم (9)، صدر عام (1412-1991م) وقام بمراجعته -آنذاك- والتقديم له الأخ عمر عبيد حسنة، المشرف على إصدار كتاب الأمة في دولة قطر، وذلك في فترة عمله مع المعهد مستشاراً غير متفرغ ومشرفاً على ملف الدراسات القرآنية، ويصدر هذا الكتاب بثوبه الجديد، وقد اشتمل على جلّ وأهم ما اشتملت عليه ورقة العمل تلك، مع إضافات وتغييرات كثيرة لعل أهمها هذه المخططات الإيضاحية التي تكرم بإعدادها أخونا المهندس محمد بريش، المستشار غير المتفرغ في المعهد في مجال الدراسات الثقافية والمستقبلية.

وإذا كانت التعديلات التي تمت في «ورقة العمل» السابقة سمحت ببعض التعديل في العنوان، لتغير بعض معالم الدراسة بما طرأ عليها من إضافات، فإن المعهد قد حرص على أن يبقي على مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة كما هي، في كتابنا هذا، مع أن عمله رسمياً مع المعهد قد توقف اعتباراً من مارس 1995م لظروف مالية ضاغطة، فرضت على المعهد إعلان حالة تقشف والاستغناء عن كوكبة من مستشاريه، لم تحظ مؤسسة فكرية أو ثقافية بمثلها، لكن جلّ هذه المجموعة الفريدة من المفكرين اعتبروا الظروف المالية، التي يتعرض لها المعهد جزءاً من الضغوط التي تمارس على إرادة هذه الأمة، التي لا بد من التغلب عليها، فأعلنوا تضامنهم مع المعهد واستمرارهم في أعمالهم دون مقابل، فجزاهم الله خير الجزاء ونفع بهم. وإننا نعتبر هذه الوقفة النبيلة من هذه الكوكبة من المفكرين دليلاً على اعتدادهم بالمعهد وبرسالته وإيمانهم بقضيته، وهي في الوقت نفسه شهادة قدرة ونجاح لقضيتنا إن شاء الله.

عزيزنا القارئ إن هذه الرسالة وإن اشتملت في صياغتها الأخيرة على كثير من خصائص الخطاب العام، لكنها لم تخرج تماماً من إطار خصوصيتها الفكرية والثقافية، ونحسب أن الأفكار المعروضة فيها تهم كل من له من هموم هذه الأزمة الفكرية والثقافية نصيب، لكن قراءتها تستلزم قدراً لا بأس به من

الصبر والحيدة، والإحساس بأهمية الفكر والثقافية في البناء الحضاري الإسلامي الجديد.

إن الظروف الصعبة التي تجتازها أمتنا الإسلامية والفترة الحرجة التي تحياها جماهيرنا، قد تجعل الآذان أقل التفاتاً لقضايا الفكر، لأنها من وسائل الدواء الطويل المدى الذي نقدمه وننادي به، لكن استمرار الإحباط والفشل والإحساس بالمهانة والضياع، كل ذلك يؤكد حقيقة صارخة هي: لو أن هذه الأمة استقامت عقيدتها، وصلح فكرها وتحررت إرادتها، وأحسن بناء إنسانها وإعداده وتمتعت بحريتها الكاملة، هل كان يمكن أن يحدث لها ما حدث؟ وهل كان يمكن للشياطين أن تجتالها بين الحين والآخر، لتدمر ما جمعت من قدراتها، ولتعيدها إلى نقطة البدء في جهودها لولا استحكام الأزمة الفكرية وغياب الهوية الثقافية والوحدة الأخوية؟ هل تسقط الأمة هذا السقوط المروع في شِراك خصومها وأعدائها؟!

إن حاجة هذه الأمة إلى الإصلاح الفكري والحضور الثقافي، والشهود الحضاري أشد من حاجتها إلى الغذاء والهواء. ولعل في هذه الرسالة تذكيراً بذلك إن شاء الله.

والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، إذ يتوجه بهذه الرسالة إلى الشباب المسلم - وهو المخاطب الأول والمستفيد الأهم من هذه الرسائل والمقصود ابتداءً بها - فإنه يسعده أن يتلقى من هذا الشباب ملاحظاته ونقده ورأيه في أي حلقة من هذه الحلقات.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وأعان أمتنا على اجتياز محنتها ومعالجة جراحها وبلوغ شفائها، إنه سميع مجيب.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الخامسة

إصلاح الفكر الإسلامي

يعني مصطلح الفكر عند الإطلاق، الطريقة التي يستعملها العقل الإنساني في سعيه لمعرفة الحقيقة النظرية أو العملية؛ ولذلك جاء في «لسان العرب»: الفكر هو إعمال الخاطر في الشيء، مقصودا بالخاطر قوّة التدبّر في الإنسان، وهي العقل. ومن هذا المعنى اللغوي اشتُقّ المعنى الذي أصبح مصطلحاً سارياً في الثقافة الإسلامية، وهو ما ضبطه الجرجاني بقوله: «الفكر ترتيب أمور معلومة للتأدّي إلى مجهول»[1]، وذلك هو منهج العقل في سعيه إلى معرفة الحقيقة المجهولة.

وقد أصبح يُستعمل الفكر أيضاً للدلالة على الرؤى والمعاني والحقائق التي يتوصّل إليها العقل بعد البحث، وأحسب أنّ هذا الإطلاق حديث العهد، ولكنه أصبح هو الغالب في دوران هذا المصطلح على ألسنة مستعمليه وأقلامهم، ولعلّ ذلك تمّ من باب إطلاق الملزوم على اللازم، إذ تلك الرؤى والمعاني ما هي إلا نتيجة للفكر بمعنى إعمال العقل، فأُطلق اسم المقدّمة على النتيجة، وهو مستعمل في لسان العرب.

وعلى هذا المعنى يكون مدلول الفكر الإسلامي هو تلك المنهجية التي يستعملها العقل المؤمن بحقيقة الإسلام للبحث عن الحقيقة، أو هي تلك

(1) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. **التعريفات**. بيروت: مكتبة لبنان، طبعة مصورة عن طبعة فلوجل، 1985، ص176.

الرؤى والحقائق التي يتوصل إليها بعد البحث. ومهما يكن من أنّ الاستعمال الغالب أصبح يميل إلى هذا المعنى الثاني، إلا أنّ إطلاق الفكر على المعنى الأول يبقى ذا أهمية كبيرة حينما يتعلّق الأمر بالإصلاح والتصحيح، إذ إصلاح الأصل وهو المنهج يفضي إلى إصلاح الفرع وهو النتيجة متمثلة في الأفكار. وما إخال الدكتور طه جابر العلواني في كتابه هذا إلا قاصداً بالفكر منهجية العقل في التفكير بالدرجة الأولى مهما يكن له من قصد إلى إصلاح الأفكار التي تنتجها تلك المنهجية.

وبما أنّ منهج النظر العقلي يتوقّف عليه إلى حدّ كبير حصيلة ذلك النظر من الرؤى والمعتقدات من حيث صحّتها وفسادها تبعاً لما عليه المنهج من سداد أو فساد، فإنّ الإسلام كما جاء بثورة عقدية قيمية تصحّح المعتقدات والقيم الأخلاقية والإنسانية، فإنه جاء أيضاً بثورة منهجية في النظر العقلي تصحّح الفكر طريقةً للعقل في مسعاه لمعرفة الحقيقة، فالضلال العقدي كان من أهمّ أسبابه الانحراف في الفكر أي في منهجية النظر العقلي، فقد كان الناس قبل الإسلام يسعون إلى معرفة الحقيقة إما من التعقّل المجرّد الذي لا صلة له بالواقع المحسوس كما هي حال الفلسفة اليونانية في عمومها، أو من التصفية الروحية المنقطعة عن العالم المحسوس كما هي حال الفلسفات الغنوصية، أو التصورات الخرافية الأسطورية كما هي حال بعض الثقافات البدائية.

فلما جاء الإسلام أحدث ثورة في هذا الشأن المنهجي، ووجّه الناس إلى طريقة في التفكير غير معهودة، وبيّن للعقل مسالك في النظر تجعله أقرب ما يمكن من إصابة الحقيقة، ووضع له في ذلك قواعد منضبطة تصرفه عن مسالك الأوهام، وتحرّره من قيود الأهواء واستبداد المستبدّين. وإذ لا يتسع المقام لشرح ذلك المنهج وقواعده، فإننا نشير إلى أنّ من القواعد المنهجية التي تكتسي صبغة الثورية، توجيه النظر العقلي في البحث عن الحقيقة مهما تكن نظرية مجرّدة إلى الواقع المحسوس متمثلا في مشاهد الكون وآياته المرئية، بدلا من التعقّل المحض والتصفية الروحية كما كان سائدا في عالم الثقافة القديم، وهو ما يتمثّل في تلك الصيحة القرآنية المدوية التي نادت في الناس أن: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101]، ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: 20]. ويمكن أن نذكر أيضاً قاعدة التبيّن، بما تحمل من معاني المقارنة والنقد كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: 6]، وكذلك قاعدة التحرّر من الأهواء والشهوات التي من شأنها أن تصرف العقل عن وجهة الحقّ.

وقد تشرّب المسلمون هذا الفكر، أي هذه المنهجية في النظر العقلي مع ما تشرّبوه من القيم والمعتقدات، وأصبح لهم سيرة عقلية فيما يشبه السليقة المتمكّنة دون صنعة مقصودة. وبهذا الفكر اقتحموا عالم المعرفة، سواء كانت معرفة خاصّة بحقيقة دينهم، أو معرفة عامّة بشؤون الحياة والكون، وبه أنشأوا تلك الدائرة الواسعة من العلوم التي أصبحت مفخرة الأمّة، ما كان منها مخترعا على وجه الابتداء كالعلوم الشرعية واللغوية، وما كان مقتبساً من علوم الأوائل ولكن اتّخذ له بهذا الفكر وضعاً جديداً في دائرة الثقافة الإسلامية بفعل تلك القواعد المنهجية الجديدة كالعلوم الطبيعية والفلكية والمنطقية. وقد أصبح لهذه الدائرة المعرفية الإسلامية بهذا الفكر الجديد طابعها الخاص الذي أفضى فيما أفضى بمنهجه التجريبي إلى نشأة هذه الحضارة الحديثة.

ولكن الضعف الحضاري العام الذي أصاب المسلمين بعد زمن من الازدهار أصاب أيضاً هذا الفكر الذي أنشأ ذلك الازدهار الحضاري، أو ربما كان ضعف ذلك الفكر هو الذي أدّى إلى ضعف تلك الحضارة، فالجدلية بين الفكر وبين منجَزاته الحضارية جدلية متبادلة، حيث يؤثّر كلّ منهما في الآخر ويتأثّر به. فتلك القواعد المنهجية الكبرى التي أسّس بها القرآن الكريم الفكر الإسلامي دبّ فيها شيئاً فشيئاً الانحلال، فإذا تلك القاعدة التي ينطلق بها العقل في بحثه عن الحقيقة من الواقع المحسوس يداخلها التعقّل المنطقي الصوري المجرّد على منهج أرسطو، كما يداخلها التروحن الصوفي على منهج الفلسفة الشرقية القديمة. وإذا بقاعدة التبيّن تنتابها نوازع التعجّل والارتجال في إطلاق الأحكام، وإذا بقاعدة التحرّر تنحلّ تحت ضغوط التعصّب المذهبي والتقليد للآباء والأجداد. وبكلّ ذلك انحدر الفكر الإسلامي بالمعنى المنهجي إلى مستوى أصبح فيه العقل الإسلامي كليلاً غير قادر على المبادرة المنتجة.

ولمّا انتهى الأمر إلى عصرنا الحاضر كان الفكر الإسلامي على هذا

الوضع من الكلالة، فإذا بصيحات الإصلاح التي أطلقها الروّاد منذ القرن التاسع عشر لا تثمر إلّا قليلا، بالرغم من تواليها منذ محمد بن عبد الوهاب، ومروراً بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وخير الدين التونسي، وانتهاء إلى الحركات الإصلاحية المعاصرة. وما إخال هذا الرجع الضعيف لصيحات النهضة إلا عائداً في شطر كبير منه إن لم يكن الشطر الأكبر إلى أنّ إصلاح الفكر لم يكن له حظّ كبير في تلك الحركات الإصلاحية، فبقيت إذن إحدى أهمّ أدوات الإصلاح متمثلة في الفكر غير فاعلة في حركة الإصلاح لما استصحبته من خلل استمرّ قرونا، فكانت النتيجة على ذلك النحو المشهود.

وقد انتبه بعض المصلحين إلى هذا النقص في مشروع الإصلاح للنهضة بالمسلمين، منذ أوائل القرن العشرين، وحاولوا تباعاً أن يلفتوا الانتباه إلى هذا الخلل في ذلك المشروع، وكانت لهم مبادرات في ذلك جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار، وأن تُتعهّد بالدرس والتطوير لتأخذ مجراها في فعالية الإصلاح، ولكن كأنّي بهذه المحاولات لم تجد من الاهتمام ما يليق بأهمّيتها ودورها الفاعل في الإصلاح، فالذي كان طاغيا هو إصلاح المفاهيم والأفكار والمعتقدات، وأما إصلاح الفكر الذي هو الآلة المفضية إلى ذلك فلم يكن الوعي به على قدر عظيم دوره.

ولعلّ من أوائل من جعل من إصلاح الفكر همّاً من همومه النهضوية الفيلسوف المسلم محمد إقبال، فقد بذل جهوداً كبيرة في بيان ما لإصلاح الفكر من دور في قيام النهضة الإسلامية، وهو ما بدا في تلك المحاضرات الستّ التي ألقاها في هذا الشأن، والتي جمعت في كتاب اختير له عنوان **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ومن بين ما يقول فيها: «إننا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر في الإسلام الحديث، ولكن ينبغي لنا أن نقرّر أنّ لحظة ظهور الأفكار الحرّة في الإسلام هي أدقّ اللحظات في تاريخه، فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال»[1]، إذن فهي

(1) إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة 2، ص 187.

دعوة إلى إصلاح فكري ينطلق من تحريره، ولكنه تحرير منضبط بما لا يؤول إلى انحلال.

وقد حمل نفس الهمّ الإصلاحي من خلال إصلاح الفكر بعد محمد إقبال المفكر الجزائي مالك بن نبي، إذ قد كرّس هذا المفكّر الفذّ معظم مؤلّفاته لإصلاح الفكر الإسلامي بطريقة أو بأخرى، ليتّخذ من ذلك المدخل الأساس لإحداث النهضة، وهكذا خصّص لهذه القضية بصفة مباشرة كتبه: «شروط النهضة» و«مشكلة الثقافة» و«مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي»، وتناول ذات القضية في الأكثر من كتبه الأخرى، منتهيا من كلّ ذلك إلى أنّ من شروط النهضة الإسلامية أن يحدث في الفكر الإسلامي إصلاح يصبح به فكراً رائداً مخترعاً صانعاً للحضارة، وليس مجرد فكر جامع لمنتَجات تلك الحضارة، مكدّسا لأشيائها.

وظهر بعد ذلك رجال كثر يولون الأهمية البالغة في مضمار النهضة الإسلامية بالإصلاح الفكري، ويجعلونه مفتاح الولوج إليها، ونكتفي في هذا الصدد بذكر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ذلك العبقري الذي حمل همّ النهضة الإسلامية، وكرّس شطرا كبيرا من جهده للاضطلاع بإصلاح الفكر سبيلا لإحداث تلك النهضة، وذلك من خلال بعض مؤلفاته القليلة، ومن خلال محاضراته الكثيرة، وبالأخصّ من خلال جهوده التعليمية التربوية التي كان يحرص عليها أشدّ الحرص من أجل صناعة الرجال كما كان يقول. وقد انتهى من مجمل تحليلاته في هذا الشأن إلى أنّ الشرط الأكبر للنهضة الإسلامية هو أن يُعاد تشكيل الفكر بعامل العقيدة الإسلامية ليكون في حركته كلّها مصنوعا على أساسها ومدفوعا بها، كما كان الأمر حينما صُنعت الحضارة الإسلامية على هذا النحو[1].

وقد ظلّ هذا الهمّ الإصلاحي لحال المسلمين من خلال إصلاح الفكر

(1) راجع: ابن عاشور، محمد الفاضل. **روح الحضارة الإسلامية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1992، ص 75.

الإسلامي يتردّد عند الكثير من الأعلام المنشغلين بهذا الشأن، يعزّزه في قناعة العقول ما وقف عليه هؤلاء عند ثقافة الغرب وحضارته ـ وقد درسوها بالنظر والمعايشة ـ من أهمّية كبرى لمناهج التفكير في التنمية الحضارية، حتى تجمّع ذلك كلّه في تيّار إصلاحي عامّ يقوم على إصلاح الفكر مدخلا للنهضة الإسلامية، وتشكّل ذلك التيار في مؤسسة ذات هياكل وأهداف وخطط وبرامج، وتلكم هي مؤسسة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ويُعتبر هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو كتاب **إصلاح الفكر الإسلامي** للدكتور طه جابر العلواني أحد أهمّ الأدبيات التي تشرح أهداف هذا المعهد وبرامجه وخططه، دائرة كلها حول محور أساسي هو محور إصلاح الفكر الإسلامي.

لقد كان إصلاح الفكر الإسلامي مدخلا للنهضة هدفاً واضحاً جلياً عند القائمين على هذا المعهد كما يبدو في هذا السفر، وفي أسفار أخرى مماثلة، منها على سبيل المثال كتاب **أزمة العقل المسلم** للدكتور عبد الحميد أبو سليمان، إذ الفكرة المحورية التي قام عليها المعهد هي أنّ منهجية العقل في التفكير حينما تكون منهجية صحيحة بشروطها الإسلامية هي التي تفضي بالمسلمين إلى الحلول القويمة لما يعترض حياتهم من مشاكل نظرية وعملية، وأن تلك المنهجية قد أصابها منذ زمن خلل كبير فتردّت تلك الحياة إلى وضع الانحدار الحضاري، والنهضة من هذه الكبوة لاستئناف الفعل الحضاري الإسلامي رهينة في الشطر الأكبر منها لعملية إصلاح كبرى تجرى على منهجية العقل الإسلامي في التفكير.

هذا ما صرّح به صاحب هذا الكتاب في وضوح حينما قال: «المشروع الذي نذرنا أنفسنا للتقدم به إلى أمتنا يفرض علينا أمانة لا بدّ من أدائها، هي أمانة إعداد وتقديم الأسس الفكرية والمناهجية اللازمة لحركة الأمة»[1]، وهو أيضاً ما أكّده الدكتور عبد الحميد أبو سليمان في قوله: «إذا لم يتغير منهج التفكير، وتصحح منطلقاته فسوف يبقى العقل المسلم عاجزا عن النظر الناقد

(1) العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي**. الاردن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995، ص 95.

والرؤية النافذة، وسوف يظل يراوح في حلوله ومحاولاته المتكررة الفاشلة على مرّ القرون والأجيال والدول»[1]، وبالإضافة إلى هذا الوضوح النظري فإنّ هذا الكتاب وضع خطّة عملية لتنفيذ الإصلاح الفكري، متوخّياً المسالك المتاحة، ومتحسّباً للعراقيل المعطّلة للإصلاح.

ولا شكّ أنّ المعهد العالمي وروّاده كما يظهر في هذا الكتاب قد وضعوا الأصابع على أحد مكامن الداء الذي أصاب الأمّة؛ ذلك لأنّ البناء العقلي بالمعنى المنهجي هو أحد العوامل الحاسمة في النهوض الحضاري، فإذا ما اختلّ هذا البناء كما اختلّ عند المسلمين منذ بعض القرون فإنّ مسيرة التحضّر تصاب في مقتل. ولو تتبعنا نشوء الحضارات وسقوطها لوجدنا هذا البعد المنهجي في التفكير أحد أهمّ العوامل في كلّ من نشأتها وسقوطها، أفلا نرى كيف أنّ الشعوب التي بُنيت عقولها على التفكير الخرافي الأسطوري ظلّت راسبة في الحياة البدائية ولم تستطع أن تعمّر في الأرض؟ وأفلا نرى أيضاً كيف أنّ هذه الحضارة الغربية إنما نشأت وتطورت حينما تشكّل العقل الأوروبي بإيحاء إسلامي على منهج التجربة الواقعية بعدما ظلّ زمناً طويلاً يسبح في الخيال النظري؟ علما بأننا لا نهمل في هذا الشأن العلاقة الجدلية بين الأفكار والقيم التي يحملها العقل وبين الكيفية المنهجية التي يتكيّف بها.

إن مشروع الإصلاح الفكري الذي يحمله هذا الكتاب ظلّ دَيْدَن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ربع قرن منذ نشأته إلى الآن، يبشّر به وينبّه إلى أهميته، وينشره بين الناس، ويؤلّف فيه المؤلّفات، ويعقد عليه الندوات والمؤتمرات، ويسعى إلى أن يجعله محتوى دراسياً في بعض المؤسسات والجامعات، فأحدث بذلك حركة في ساحة الثقافة الإسلامية لا تخطئها عين المهتمّ بهذا الشأن، وانخرط في هذه الحركة جيل من الباحثين المسلمين يمتدّ وجودهم من ماليزيا شرقاً وما والاها إلى الرباط غرباً، يحملون كلّهم نفس الهمّ، ويسهمون بأقدار مختلفة في إنجاز متطلباته.

(1) أبو سليمان، عبد الحميد. **أزمة العقل المسلم**. الأردن: مكتبة المنار، 1992، ص 50.

وقد كنت أحد الشهود على هذا المشروع في إصلاح الفكر الإسلامي منذ نشأته أو بعيد ذلك بقليل، وربما انخرطت فيه بصفة مباشرة أو غير مباشرة ببعض الرسائل التي قام المعهد العالمي بنشرها، وببعض المؤلفات التي ألّفتها في سياقه ونُشرت في مؤسسات أخرى[1]، وبمواكبة مستديمة لمناشط المعهد في إنفاذ هذا المشروع، ولمنشوراته وإنجازاته فيه. وإنما كان التجاوب مع مشروع الإصلاح الفكري الذي تبناه المعهد بالغاً مني هذا المبلغ لأنّني كنت منذ انخرطت في الحياة الجامعية وقبل أن يكون بيني وبين المعهد اتصال أحمل همّ الإصلاح الفكري للأمّة، وذلك بتأثير من شيخي المرحوم محمد الفاضل بن عاشور حينما كان يلقي علينا بالجامعة الزيتونية محاضرات في هذا الشأن عميقة المعاني بالغة التأثير في مقرّر جامعي اختار له من الأسماء مقرّر «المدخل الديني»، وقد أصبحت بعد ذلك أدرّس هذا المقرّر في ذات الجامعة، وأتناول فيه ذات المعاني التي تلقيناها على شيخنا المرحوم، وهي تلك التي كانت على يد المعهد العالمي مشروعاً إصلاحياً متكاملاً.

خلال هذا الربع قرن شهد مشروع الإصلاح الفكري سيرورة موفقة في جملتها، فقد تسامع به الناس من المثقفين ذوي النزعات الإسلامية على وجه الخصوص، وتنادى فريق منهم إلى التفكير فيه، وعملوا على التوعية به في صفوف الطلاب والباحثين، سعياً إلى أن يغيروا ما بأنفسهم في شأن منهج التفكير، وأن يغيّروا هم ما بأنفس منظوريهم من الجيل الذي سيليهم في ذات الشأن، حتى أصبحت تكاد لا تخلو جامعة إسلامية من مؤلفات تتعلق بهذا الأمر، ومن مداولات فيه، ولم يكن الأمر كذلك البتة قبل ربع قرن، علماً بأنّ مشروعاً من هذا الطراز لا تُحاكم سيرورته فيما يحصل فيها من نتائج بالسنوات، وإنما تحاكم بالعقود والأجيال. ولكن مع ذلك فإنّ المواكب لهذا المشروع في نشأته وتطوّره ومسيرته، الحامل لهمّه مخلصاً في ذلك، لا يملك وهو يرقبه اليوم إلا أن يتوقّف عند بعض المشكلات التي تحفّ به، تقويماً

(1) مثل كتاب «الشهود الحضاري» الذي أُنجز في نطاق خطّة الإصلاح الفكري للمعهد، ولكن نشر في دار الغرب الإسلامي لظروف حفت بذلك.

لمسيرة الماضي، وعبرة مستشرفة للمستقبل. ولعلّ من أهمّ تلك المشكلات ما نطرحه تالياً:

أولاً ـ إنّ الإصلاح الفكري يندرج ضمن الإصلاح المنهجي، والمنهج والإصلاح المنهجي هو أحد المعاني التي لا تستوعب العقول فهمها بسهولة، لأنه معنى اعتباري ليس له شخوص عينية بيّنة. ولو كان الأمر متعلّقا فقط بالإصلاح العقدي أو بإصلاح الأفكار لكان على قدر من الوضوح الذي تتفهّمه العقول بيسر، إذ هو متمثّل في فكرة خاطئة أو عقيدة فاسدة المطلوب أن تُستبدل بأخرى صحيحة لتحلّ محلّها في قناعة العقول، أما إصلاح المنهج فهو يتعلّق بإصلاح طريقة في النظر وفق خطوات منطقية وتراتيب عملية ليس استيعابها بوضوح سهل المنال/ وهو ما وقفنا عليه عيانا حينما كنا نطرح مثل هذه القضية مع الطلاب، أو نكلفهم بإجراء بحوث فيها.

وفي هذا السياق، فإنّ مصطلح الفكر في بعده المنهجي كما هو المحور الأساسي في هذا المشروع ظلّ غير بيّن في وضوح عند الكثير من الناس، ولعلنا نزعم بأن الجهود التي بُذلت في توضيح هذا المفهوم، وإرسائه حقيقة بيّنة في الأذهان لم يكن جهدا كافيا، فظلّ مفهوم الفكر منهجا مختلطا بمفهوم الفكر محتوى من الأفكار والمعتقدات، يحلّ أحدهما محلّ الثاني، فلم يأخذ المفهوم المنهجي إذن استقلاليته المفهومية ليكون محطّ اهتمام مباشر مخصوص، فيُبيّن معناه، وتُضبط قواعده، ويُنبّه إلى انحرافاته، وتضرب الأمثلة على حال سداده وحال انحرافه من تاريخ الثقافة الإسلامية.

وإذا كانت الأدبيات التي صدرت عن المعهد قد تناولت هذا الأمر فإن ذلك حسب علمي كان لماما، ولعلّه لم يصدر عنه دراسة مستقلّة وافية شاملة لهذا الموضوع، وذلك كلّه فيما أرى كان سبب ارتباك في مفهوم الإصلاح الفكري عند القاعدة العريضة من المهتمّين بهذا الشأن، وإن كان واضحا بينا عند رواد المعهد ومؤسّسيه. وأحسب أنّ هذا الأمر يستحقّ أن يولى أهمية بالغة في الفترة المقبلة، فيُعمد مثلا إلى تأليف كتاب بعنوان **منهجية الفكر الإسلامي** ليكون دليلاً مرشداً يضاف إلى المؤلفات الأدلة التي أنجزها المعهد

من مثل هذا الكتاب الذي بين أيدينا وكتاب **إسلامية المعرفة** وكتاب **أزمة العقل المسلم**.

ثانياً ـ إنّ منهجية الفكر هي جزء من ثقافة الأمم التي تشمل إضافة إلى ذلك منهجية السلوك، وهذه الثقافة إنما تتشكّل بإحدى طريقتين: أولاًهما ثورة معرفية عقائدية شاملة، تصوغ الأمم في طرائق تفكيرها وفي مسالك حياتها صياغة جديدة بصفة جذرية وفي زمن قصير، وهذه لا تحدث غالباً إلا بالأديان، مثل تلك الثورة الثقافية التي صنعها الدين الإسلامي، فأفضت إلى أمّة ذات منهج جديد في الفكر والسلوك، وربما تشبهت بذلك الثورات الإيديولوجية الكبرى. والثانية تحوّل تدريجي في منهجية التفكير يتمّ بالتراكم التربوي عبر مناهج التربية والتعليم في الغالب، يتمّ خلاله صياغة العقول الناشئة صياغة تؤول بها إلى تشكّل جديد من حيث طرق البحث عن الحقيقة النظرية والعملية، وأحسب أنّ أغلب التحوّلات الثقافية في بعدها الفكري المنهجي تمّت على هذا النحو كما هو ملحوظ في الحالة اليابانية على سبيل المثال.

وإذا كان الربع قرن الماضي من عمر المعهد فترة ضرورية للتعريف بمشروع الإصلاح الفكري، والتبشير به ونشره بين الناس لما هو عليه في ذاته من صعوبة تصوّر، ولما للمسلمين به من طول عهد، فإنني أزعم أنّ الفترة المقبلة ينبغي أن تتجه فيها الجهود إلى المراكمة التربوية التعليمية لتشكيل عقول الناشئة الإسلامية على الفكر الإسلامي المبتغى. ولا يخفى أنّ ذلك أمر صعب المنال إذ هو متعلق إلى حدّ كبير بالسلطان السياسي القيّم على حظوظ التربية والتعليم، وهو سلطان لا يملكه المعهد ولا من يحملون همّه، ولكن مع ذلك فإنه ليس بالأمر المغلق إذا ما اشتدّت العزائم، واستثمرت الهوامش الممكنة من مجالات التربية، وخاصة منها تلك الموكولة إلى المؤسسات الأهلية.

ثالثاً ـ إذا كان الإصلاح الفكري يُبتغى منه أن يكون مفتاحاً للنهضة الحضارية أو أحد مفاتيحها الكبرى فإنّ النهضة إنما تصنعها الشعوب وليس

فقط النخبة المفكرة، مهما يكن لهذه النخبة من دور الريادة والتوجيه؛ ذلك لأنّ النهضة لئن كانت رهينة أفكار كبرى ومنهج في التغيير، فإنها أيضاً رهينة إنجاز عملي في كافة مجالات الحياة، وهذا الإنجاز لا يتمّ إلا بتضافر أفراد الأمّة عليه بجميع أصنافهم وطبقاتهم واختصاصاتهم، وليس هذا الإنجاز العملي بواقع على الوجه الذي يحدث النهضة إلا من خلال إصلاح فكري أيضاً، إذ هو يحتاج إلى عقل يرشد إلى طرق عملية ذات قواعد وتراتيب من شأنها أن تجعل الفكرة النظرية تأخذ مجراها إلى أن تصبح واقعا عمليا بما يحقق أهدافها، وإلا فإنها قد تؤول إلى بوار عملي مهما كانت عليه من حقّ نظري. ولو تأملنا أحوال المسلمين اليوم لوجدنا أنّ حاجتهم إلى إصلاح في الفكر العملي لا تقلّ عن حاجتهم إلى إصلاح في الفكر النظري.

وإذا كانت الفترة الماضية من عمر المعهد وجهوده في إصلاح الفكر قد اتجهت في معظمها إلى النخبة من الباحثين والمفكرين وطلاب العلم من الدرجة العالية، فإنه قد آن الأوان فيما نحسب لأن تتجه تلك الجهود إلى الدوائر الأوسع من المسلمين لإصلاح الفكر العملي فيهم، فإذا الزارع في مزرعته، والصانع في مصنعه، والراعي في مرعاه يتصرّفون في تصريف أعمالهم بعقول تسلك مسالك في التفكير قائمة على قواعد من شأنها أن تكون منتجة معمّرة. وإذا كان هذا الإصلاح للفكر العملي يلتقي مع إصلاح الفكر النظر في قواسم مشتركة فإنه قد يفترق عنه في بعض الأسس والقواعد، فحري بالمعهد العالمي إذن أن يضمّ هذا الهمّ في الإصلاح الفكري إلى همّه الأصلي الأكبر، ليتجه هذا الإصلاح إلى الدوائر الأوسع من أفراد الأمة بدل أن يبقى مقصوراً على النخبة منها.

لقد استطاع هذا السفر الذي بين أيدينا من إنجاز الدكتور طه جابر العلواني خلال ربع قرن مع مؤلفات مماثلة له أن يشقّ بمشروع الإصلاح الفكري طريقاً في أرض كأداء من أحوال الثقافة الإسلامية، استمرأت منذ زمن التقليد، ولم يكن لها عهد في منهجية الفكر بتجديد، فأصبح إصلاح الفكر وإسلامية المعرفة أمرا معهودا عند شقّ عريض من الباحثين المسلمين، كما أصبح همّا للكثير منهم، وأُنجزت في ذلك إنجازات مقدّرة لا يمكن لحاكم

بالقسط إلا أن يعترف بها، ولكن إذا كانت سنّة الحياة التطور، فإن هذا المشروع الحي مشروع الإصلاح الفكري لا يسعه إلّا أن يتطور مستفيداً من تجربة الماضي، ومستشرفاً آفاق المستقبل، ولا يراودني شكّ في أنّ الأخ الحبيب صاحب هذا الكتاب يحمل من همّ التطوير في هذا الشأن أكثر مما أحمل، وينظر فيه إلى آفاق أبعد مما أنظر، ولكن ليكن عذري فيما قلت ما أكنّ للمعهد العالمي وروّاده من احترام وتقدير، وما أحمل لمشاريعه من همّ. والله تعالى الموفق إلى سواء السبيل.

أ. د. عبد المجيد النجار

باريس

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الأكرم، الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وناط به حمل أمانة التكليف، والقيام بأعباء الاستخلاف في الأرض، لبناء الحضارة، والتوجه بالبشرية صوب خالقها، وفق توجيه الوحي، وكسب العقل. واعتبر الحوار والنقاش والمناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن، الطريق الأمثل لتحقيق القناعة الفكرية، التي تتشكل في الأعماق فتولد الإيمان، الذي يعتبر الموجّه الصحيح لسلوك الإنسان.

والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، الذي جعل المجاهدة بالقرآن، وبناء الشوكة الفكرية، أعلى أنواع الجهاد وأسماها، واعتبر الساحة الفكرية ميدان الحوار الحضاري، والمعركة الحقيقية بين الإسلام وخصومه، قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: 52].

وكان جهاد الكفار كله للحيلولة دون وصول كلمة الحق والمعرفة الصحيحة إلى العقول، والشغب عليها، ومحاصرتها، لأنها وحدها، وسيلة إصلاح الإنسان، وإعادة تشكيله الثقافي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: 26] وبعد:

فلا شك أن الشخصية المسلمة اليوم تعيش في أزمة؛ لأنها افتقدت الكثير من منهجيتها وصوابها، وانحسر شهودها الحضاري، وعجزت عن التقويم والمراجعة ومعرفة أسباب القصور، وتجديد مواطن الخلل والتقصير، وتوقفت عن أداء رسالتها في الشهادة على الناس، والقيادة لهم، فأصبح موقعها خارج السياق التاريخي، والواقع المشهود، والمستقبل المأمول.

والغياب الحضاري، أو الأزمة الحضارية التي تعاني منها الأمة المسلمة اليوم، ليست بسبب الفقر في القيم التي أكملها الله، وتعهد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تسلتزمه خاصيتا الخلود والخاتمية -في رسالة الإسلام- أو بتعبير آخر: ليست المشكلة أو الأزمة التي يعاني منها العقل المسلم، مشكلة قيم، أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري الذي يجسر العلاقة بين هذه القيم بمنطلقاتها وأهدافها، وبين العصر، ويساهم باستصحاب الرؤية القرآنية، ويدرك معالم الخلود في الرسالة الإسلامية، وقدرتها على العطاء المتجدد المجرد عن حدود الزمان والمكان لحل المشكلات البشرية، وهذه وظيفة الفكر، أو عالم الأفكار، الذي نعاني من التأزم فيه، لذلك نرى أن الخلط بين ما نسميه الأزمة الفكرية التي يعاني منها العقل المسلم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم من جانب، وأفقدته القدرة على تنزيلها على الواقع الإنساني، وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها، كان وراء الكثير من المغالطات والتراجعات والحواجز النفسية التي لا تزال تكرس التخلف باسم التدين، لذلك نعتقد أن من الأبجديات الأولى اللازمة للمعرفة الإسلامية اليوم: إزالة الخلط بين المبادئ المحفوظة والبرامج أو الأوعية الفكرية المطلوبة لحركة الحياة، وبين القيم الثابتة والأفكار الغائبة.

فالانحسار الحضاري الذي نعاني منه هو أزمة فكر أولاً وقبل كل شيء، لأن النسق الفكري للحضارة الإسلامية وإسلامية المعارف، قد توقف عند حدود العقول السابقة، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن الإنتاج، ونعتبر ما أنتجته العقول السابقة نهاية المطاف، وغاية البعد الزماني والمكاني بالنسبة لخلود الرسالة، حتى انتهينا إلى هذا الغياب الحضاري الذي لا بد معه من العكوف على الذات، واكتشاف أسباب الأزمة وإدراك آثارها، وتحديد مواطن الخلل والإصابة، واستلهام القيم في صياغة فكرية معاصرة، قادرة على استرداد الشهود الحضاري، وامتلاك المقياس السليم وإعادة بناء الأمة الشهيدة على الناس: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

وعملية التحويل الثقافي المأمول تحتاج إلى عمر طويل، ومعالجات شتى

ومتنوعة، لأنها في الحقيقة محاولة لإعادة تشكيل الإنسان، وتلك عملية من أصعب الأمور وأكثرها تعقيداً وتشابكاً، نظراً لطبيعة الإنسان، والعوامل المعقدة التي تتحكم بشخصيته، ولأن الإنسان هو أداة المعالجة ومحلها في الوقت نفسه.

وقد لا نغالي إذا قلنا إن العملية ذات أبعاد متعددة، يشارك فيها التعليم والإعلام والتربية، وتتحكم فيها كل الموارد الفكرية والثقافية مجتمعة.

فإصلاح مناهج الفكر، وإعادة التشكيل الثقافي، وتصويب مسار المعرفة لتنضبط بمنطلقاتها، وتحقق أهدافها الإسلامية، يستدعي رؤية شمولية متوازنة، وضبطاً للنسب المختلفة؛ إذ لا يمكن أن يتصور أن يكون الإصلاح والتصويب في جانب بمعزل عن بقية الجوانب الأخرى المؤثرة.

من هنا جاء اختيارنا المرابطة في هذا الموقع الفكري، أو الثغر الثقافي، والتوجه صوب القضية الأهم والأصعب: إصلاح المناهج العقلية، وبناء الشوكة الفكرية، وتنقية الموارد الثقافية في ضوء الكتاب والسنة، لاعتقادنا أن ذلك يشكل الرحم والمحضن الذي تتشكل في داخله الأجنة الحضارية، القادرة على استئناف الحياة الإسلامية وبناء الحضارة الإنسانية. واختيار هذا الموقع والمرابطة في هذا الثغر ليس بديلاً عن أي من حركات الإصلاح والنهوض والبعث الحضاري، وإنما هو شرط مستمر لتصويب مسارها جميعاً.

لذلك كان من الضروري -والمهمة بهذه الجسامة ومعادلتها بهذا التعقيد والتداخل- بذل الجهد كله في تصويب المنطلق، وتحديد الهدف، والتأكد من إمكانية الإنجاز، ودراسة الخطوات بدقة، وإبصار الأولويات، ومن ثم توضيح الفكرة، وحسن طرحها، ومعالجة إصاباتها، وامتلاك العناصر المطلوبة لتوصيلها، ودراسة أحوال المتلقي، وحسن قراءة الواقع الذي نعيشه.

ولا يغني هذا جميعه مهما بلغنا فيه، من ضرورة التوكل على الله واستلهام النبوة، واستصحاب ذلك بر الطروحات السابقة ودروسها، وتجنب عثراتها والاستفادة من رصيدها.

كما لا بد من الصبر الدؤوب، فالإشكالية في القضية المطروحة: (إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة) أن جدار التخلف أصبح سميكاً، والاستلاب الحضاري أصبح متحكماً إلى حدّ بعيد، إلى درجة يمكن معها أن نقول: إن الكثير من جوانب العلوم والمعارف اليوم غادرت منطلقاتها الإسلامية، وتخلت عن أهدافها وأصبحت خارج السياق الإسلامي.

فإذا علمنا أن كثيراً من الصحابة -رضي الله عنهم- استمر أكثر من عقد أو عقدين من الزمان، قبل أن يتم تحوله إلى الإسلام - على الرغم من إعجاز القرآن، وبلاغة النبي ﷺ، وأهليّة البيان- أدركنا بُعْد الشقة وجلال المهمة.

وقضية أخرى، لا بد من لفت النظر إليها في هذا المجال، وهي أن من طبيعة الدراسات والطروحات المنهجية، أو التي تحاول العمل في مجال تحديد معالم المنهج، أنها بحاجة إلى كثير من الحوار والمناقشة والتفاكر والتناظر، حتى تُمتحن الفكرة وتتبلور وتتأصل. ومن خصائصها أن يبقى ملفها مفتوحاً، وبذلك تسلم الموازين، وتنضج المناهج، ويطمئن إلى النتائج. لذلك فالتكرار في قضايا المنهج ليس معيباً، بشرط تنوع وسائل التناول والطرح، ليصبح بمقدور الجميع تحصيل الإدراك بأبعاد القضية المطروحة.

وقد تكون المشكلة أن معظم حركات التصويب والنهوض والبعث الحضاري، انصرفت -إلى حد بعيد- لمعالجة آثار الإصابات الفكرية، وإعادة ترميم الصورة، فكأنها انشغلت أكثر بالنظر في الأشياء وإصلاحها، وغفلت عن إصلاح الأفكار التي تنتجها، ولم تعط للمناهج والموازين ما تستحق من العناية، لذلك اتسع الخرق على الراقع، وطالما أن الخلل في المنهج قائم، فلا بد من أن يستمر الخلل في المُنتج.

لذلك نرى أنه لا مندوحة من العودة إلى طرح قضية إصلاح المنهج وتصويب الموازين لإعادة بناء الأمة المعيارية، الأمة الوسط، التي تكون شهيدة على الناس، منطلقة من شهادة الرسول ﷺ عليها. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143].

لقد وهم الكثيرون ولا يزالون: أن الأشياء والمنتجات المادية لا علاقة لها بالأفكار؛ وهذه حالة من الطفولة العقلية المحزنة، فالأشياء في حقيقتها صورة مجسدة للأفكار، والأفكار هي التي تستدعي الأشياء، كما أن الأشياء تحمل في ثناياها مناخ وثقافة أفكارها فهي لا تنشأ من فراغ، وإنما هي ثمرة منظومة فكرية، لذلك بالإمكان القول: إن كل منتج يمثل -في الحقيقة- قيمة فكرية متوافقة معه، سواءً في ذلك منطلق إنتاج الشيء وهدفه ووظيفته، وما يشيعه التعامل مع الشيء من ثقافته التي يتمثلها وينتشر بها المتعامل معه، ونستطيع أن نقول أيضاً: إن إصابتنا بالاستلاب الحضاري، إنما جاءت من الأفكار التي هي أخطر من الأشياء، التي تمثل الرمز الفكري على كل حال.

فالمنظومة الفكرية والهوية الثقافية هي التي تحدد قسمات الأمة، وترسم مسارها، وتطمئنها إلى صواب منطلقاتها، وسلامة أهدافها، وأصالة مرتكزاتها، وانسجام أفكارها مع أشيائها. والمشكلة التي نعاني منها أن الأمة أصبحت -إلى حد بعيد- خارج السياق الإسلامي في أفكارها وأشيائها معاً، ويبقى المطروح دائماً والتحويل المطلوب باستمرار تعبيد البشرية، لتصبح صلاتها ونسكها ومحياها ومماتها لله رب العالمين، وتخليصها من الشرك الاعتقادي والفكري والاقتصادي والاجتماعي.

ذلك أن المسلم اليوم أصبح لا يشعر بعقدة الذنب إذا اقتصر على أداء الشعائر التعبدية، حتى ولو سارت الحياة في سياق آخر، بعد أن انفصل العلم عن الحكمة، والمعرفة عن الخلق، وانفصل الدين عن الحياة.

والمعهد العالمي للفكر الإسلامي لا يدّعي -في هذه المحاولة لإلقاء بعض الأضواء على المفاهيم الأساسية، لإصلاح مناهج الفكر، وإسلامية المعرفة- أنه ابتدع شيئاً، أو أنه استطاع أن يقدم ما يحل مشكلة الفكر، ويخلص من الأزمة الثقافية، وإنما حسبها أنها محاولة تؤمن بمنهج اللبنة في البناء، الذي أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: «مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع لبنة، فجعل الناس يطوفون بالبناء ويعجبون منه، ويقولون لو تمّ موضع تلك اللبنة، وأنا في النبيين موضع تلك اللبنة وأنا

خاتم النبيين»[1]؛ فهي لا ترفض ولا تنكر المحاولات السابقة ولا تبخسها حقها، بل تعتبرها لبنات لا بد من إدراكها والاعتبار بتجربتها.

كما أن هذه الورقة لا تدعي أنها سوف تقدم الحل وتصلح الخلل وتنهي أزمة العقل المسلم بوصفة سحرية، بقدر ما هي إثارة للاهتمام وطرح للموضوع واستدعاء له، وإلقاء مزيد من الأضواء على بعض جوانبه، وتقديم المنبهات والمحرضات الحضارية، وشحذ الفعالية الفكرية صوب ما نراه القضية المحورية في أزمة الأمة.

لذلك فإننا لم نرغب أن نسمي المحاولة كتاباً أو مشروع كتاب بالمواصفات المطلوبة بل ورقة عمل مطروحة للمناقشة، وملفاً مفتوحاً لكل الإسهامات الجادة في هذا الموضوع، الذي تسبب الغفلة عنه خطورة ندفع ثمنها من كياننا وشهودنا الحضاري «في كل عام مرة أو مرتين».

والله نسأل أن يرزقنا الإخلاص في القصد، والصواب في العمل، وأن يلهمنا رشدنا إنه نعم المولى.

عمر عبيد حسنه

الدوحة – قطر

(1) الترمذي. **السنن**، كتاب المناقب، باب «رسول الله خاتم النبيين».

مدخل

لماذا المناداة بإسلامية المعرفة؟

إن من أهم شروط تحقيق الفاعلية والتأثير في أي نشاط إسلامي، فهم المسلم المخاطب لمحتوى الخطاب الموجه إليه وطبيعته فهماً دقيقاً. بمعنى وضوح فكرة الخطاب لديه بمنطلقاتها وأهدافها، وتفهمه لمدى قابليتها للتنفيذ، واستشعاره المسؤولية أمام الله وأمام المجتمع حين سريان روح الخطاب فيه، وإدراكه للتناقض البارز بين واقعه المشهود وأمله الحضاري المنشود، وما يمليه بلوغ ذلك الأمل من دفع للتحديات واجتياز للعقبات.

وإدراك الخطاب وفهمه يقتضي تحقيق أمور أساسية أهمها:

- فهم المخاطِب لطبيعة المخاطَب، وإدراكه لبنيات المجتمع النفسية والاجتماعية والتاريخية، التي تكوّن المناخ الذي يعيش فيه المخاطَب، ودراسته لأبعاد شخصية المخاطَب ومداخلها، وتحديده لنوع الخطاب المؤثر فيها.

- خلو الخطاب من التعقيد والانزلاق في متاهات الاختزال أو التعميم، وتميزه بيسر الفهم، وسلاسة التعبير، وسلامة التركيب، وبساطة العرض، وسهولة التناول.

- وعي المخاطَب بدوره في العمل الذي يتضمنه ويدعو له الخطاب حياة وبناءً وعياً كاملاً، ومعرفته تفاصيل ذلك الدور وغاياته ووسائله ومعوقاته وتحدياته، وموقعه في برنامج العمل، ومرتبته في سُلّم الأولويات.

وإذا كان ذلك مطلوباً لإيصال أي خطاب يقصد إلى حفز المخاطَب لعمل ما، فإنه يتأكد حينما يكون المقصد إيصال أبعاد الخطاب الإسلامي ومضامينه، وحياً وفكراً ودعوة لعامة الناس، مع تعدد ألسنتهم وأعرافهم ومداركهم. ويزداد تأكيداً حين لا يقتصر الخطاب على فرد أو جيل، بل يشمل بالاهتمام الأمم جميعها بأجيالها الحاضرة والمقبلة، ويحتضن بالرعاية والتوجيه حاضرها الآني ومستقبلها الآتي.

وإصلاح مناهج الفكر، والعمل على إسلامية المعرفة، يشكلان القضية المحورية التي اضطلع «المعهد العالمي للفكر الإسلامي» بتحمل مسؤوليتها والتبشير بها، معتقداً أنها قضية تطرح اليوم نفسها بقوة، ومؤمناً بكونها من أهم قواعد المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر المتكامل، المقترح بديلاً عن المشروع الحضاري الغربي؛ ذلك المشروع الذي أصاب أمتنا عنت شديد في سائر وجوه التعامل معه لمجافاته لعقيدة الأمة، وتجاهله معادلتها النفسية والاجتماعية، وتجاوزه شخصيتها الحضارية التاريخية.

إننا نرى أن قضية إصلاح مناهج الفكر، وإسلامية المعرفة، لم تحظَ بالاهتمام المطلوب، ولم تبلغ مستوى الانشغال بها في حياة المسلمين على الرغم من أهميتها وخطورتها. كما أننا نرى أن أسباب القصور في حصول ذلك الاهتمام، لم تدرس بعناية لتحديد مواطن الخلل وتقويم خطوات العمل، وإن كانت الساحة لم تخلُ باستمرار من محاولات جادة هنا وهناك، لكنها لم تتجاوز الجهود الفردية إلى الجهود المؤسسية، وبقيت دون تحقيق البعد المطلوب على الرغم من مساهمتها نوعاً ما في استمرار التواصل في محاولات الإصلاح الثقافي.

ولصياغة المشروع الحضاري الإسلامي المنشود على الوجه المطلوب يحتاج الخطاب الإسلامي المعاصر إلى وضع قضية إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة موضعها الملائم، وإيلائها الأولوية وإعطائها الأسبقية، واعتبارها القضية المفتاح لكثير من جوانب الأزمة، والمشعل الضروري لجلاء ظلام الفتنة الفكرية والعلمية، التي ظل يتخبط فيها الواقع الإسلامي منذ ما يزيد على قرن من الزمان.

إن الحركة الإسلامية الإصلاحية في القرن الماضي وفي النصف الأول من هذا القرن، قد بذلت جهوداً كبيرة وتضحيات هائلة ولا شك، وحققت إنجازات عدة، لكن هذه الإنجازات عند التدقيق لا ترقى إلى مستوى تلك التضحيات.

كما أن «النقلة النوعية» التي عليها يتوقف تجاوز المسلمين لحالتهم لم تتحقق على الرغم من كل تلك الجهود، وهذا يفرض مراجعة دقيقة لكل تلك الجهود، لتزويد المحاولات الإصلاحية الجديدة بما يجنبها النتائج الفاشلة، ولتأخذ بالمضمون التجديدي الصحيح.

إن السبب الأهم -في نظرنا- في تخلف إنجازات الإصلاح عن مستوى التضحيات، هو أن محاولات الإصلاح والتجديد والتغيير التي سلكتها الأمة في أثناء الفترة المشار إليها قد عالجت أموراً وفاتتها أمور أخرى، وأن التجديد والإصلاح لم يأخذا مداهما الشامل ليحيطا بأسباب الأزمة المختلفة، ويهيئا الأمة للخروج التام منها. فانشلغت معظم حركات الإصلاح بمعالجة مظاهر الأزمة وما تنعكس عليه من آثار يومية ومباشرة، أما جذورها ومنابعها فلم تأخذ حظها من البحث والدراسة ثم المعالجة، وذلك لا يعيب تلك المحاولات ولا يقلل من شأن ما قدمته للأمة من خدمات ومكاسب، في مقدمتها المحافظة على هوية الأمة وانتمائها[1]؛ ولكنه يُبرز الحاجة واضحة إلى محاولة إصلاحية معرفية منهجية، تستطيع رصد سائر أسباب الأزمة ومنابعها، إضافة إلى آثارها وانعكاساتها، وتحاول أن تقدم للأمة منهاجاً سليماً لإعادة البناء، قائماً على الدعائم الأولى ذاتها التي عليها قام بناء حضارة الإسلام في دورته الحضارية الأولى، ألا وهي: بعث إنسانية الإنسان بوصفه إنساناً مجرداً عن كل وصف لاحق لإنسانيته، مدعواً للاشتراك مع كل إنسان في بناء مجتمع تترابط عناصره برباط العقد الاجتماعي المفتوح ليتعاقد الناس كلهم، تعاقداً بريئاً من العنصريات والطبقيات والإقليميات، ليجعلوا

(1) الأفغاني، جمال الدين. **سلسلة الأعمال المجهولة**. تحقيق وتقديم الدكتور علي شلش، لندن: دار رياض الريس للكتب والنشر، 1987م، ص 91-99..

السبيل إلى الاتفاق بينهم فيما افترقت فيه الأمم، الشعور أولاً بأن الإنسان كفء للإنسان، ثم الشعور ثانياً بأن الحقائق كلها المتصلة بالمادة والمتصلة بما وراءها، في متناول الإنسان، يستطيع أن يتوصل إليها بمداركه المتعددة المتدرجة، المستند بعضها إلى بعض في غير تنافر ولا تدابر ولا تناشر. فالمدركات الغريزية وراءها المدركات الحسية، ثم المدركات الحسية وراءها العقلية، ثم المدركات العقلية تؤدي إلى المقدمات المفضية إلى تلقي المدركات الغيبية الآتية من طريق الوحي، وإلى التسليم بها، والإذعان لها، فتوجيه هذه الدعوة على الشكل الذي وجهت به إلى الإنسان في مطلق إنسانيته، هو الكفيل بأن يبرز الطاقة الإنسانية في أتمّ استعداداتها، وأن يمكن لها التصرف في قواها بدون تحديد.

وأساس الإدراك الذي شيدت عليه، أن يذود عن كل طريق من طرق الإدراك ما عسى أن يحصل بينه وبين طريق آخر من التعاكس أو التعاضل، حتى تنبعث كلها طِلقاً إلى الغاية التي تحتمها قابليتها، لا تتحجر دونها ولا تتعثر في طريق الوصول إليها. وهكذا يحدث في الإنسان نوع من الأمن الداخلي والاستقرار الذاتي، يجعله يطمئن إلى معالم إنسانيته -كلها- على نسبة واحدة: فعقله وعقيدته وحسه المادي، وعواطفه الغريزية كلها متجانسة متعاونة ولا يخشى بعضها بعضاً، ولا يقطع أحدها سبيل الآخر. وكل ذلك لا يتأتى من تخطيط بشري أو فكر بشري نسبي، بل ينبثق من عقيدة موحاة من الله العليم الحكيم، السميع البصير. وهكذا يوجد الإنسان الفاعل القادر على القيام بمهمات الاستخلاف وأداء أمانة الابتلاء.

فالمسلمون ليسوا بحاجة، لكي يستعيدوا فاعليتهم، إلى تكوين الدين من جديد أو تجديد الدين ذاته، لكنهم في حاجة إلى الوعي المعرفي والمنهجي، الذي يمكنهم من توليد الإرادة والقدرة والعزيمة والفاعلية لتجديد مناهج الفهم وفقه التديّن وإلى قدرة على تقويم مسيرة حياتهم العملية والسلوكية بأفكار قائمة على القاعدة العقيدية ومصادر التدين.

فالانطلاقة التجديدية الحقيقية والاستجابة الصادقة لدواعي الإصلاح والتجديد، لا بد من أن تبدأ بتحقيق إنسانية الإنسان وبناء الأمن الداخلي في

ضمير الفرد المسلم، لتأتلف فيها مداركه الإنسانية كلها، ويتجاوز الإنسان بذلك ويلات الحيرة والاضطراب، وتنازع الأفكار والمعتقدات والعواطف، ويسود السلام بين المعقولات والعقائد المنقولات، ويتحقق الانسجام الواعي بين الروحانيات والماديات، وتنطلق قوة النظر لتسير في الأرض، وتقرأ في الكون بانطلاق تام، فإذا أوشكت أن تحتار وتضطرب في حقيقة المقصد، أو طبيعة الطريق، جاء الوحي يسدد ويرشد، ودُعي الإنسان إلى قراءته ليصلح ويهتدي، فيجمع الإنسان ذاته -آنذاك- بين القراءتين: قراءة الوحي وقراءة الكون. ويكون الوحي المعين والمثبت للإنسان، والهادي الأمين له في قراءته في الكون، وبذلك يستعيد الإنسان، قدرته وفاعليته ويحقق انطلاقه، ويجد الإنسان نفسه قادراً على تحقيق شروط الإنجاز الحضاري دون أن يستبد به الشعور بمطلقه الذاتي.

إن محاولات التجديد التي حدثت في أثناء الفترة المشار إليها، انطلقت معظمها من مسلمات كان عليها أن تراجعها بدقة، فقد ظنت بعض حركات التجديد والإصلاح أن تراثنا على مستوى الفكر والمنهج والعقيدة والشرعة والمعرفة كامل، وأنها لا تحتاج إلى مراجع شيء منه، ويكفيها أن تضع أيدي الأمة على تراثها، وتنبهها إلى كنوزه وجواهره، فتجد فيه كل ما تريد، باعتبار أن الأمة كانت بخير في فترات إنتاج ذلك التراث وتناوله، ولم تكن حالتها بالشكل الذي هي عليه الآن. وإذن فكل ما يلزم الأمة هو أن تنقل الصناعات والتقنيات المادية التي تحتاجها من الغرب، وتتشبث بتراثها كما هو، لتحقق النقلة الحضارية المطلوبة. وبعض تلك الحركات ظنت أن المطلوب هو القيام ببعض المراجعات التراثية، وتجديد بعض أنواع ذلك التراث، وإعادة إنتاجه، وتعليمه بلغة العصر، وإيجاد الوعي به ليتحقق المطلوب. وبعضها قد اعتبر مهمة التجديد والإصلاح ميسرة إذا ما تم التمكن من القيام بتفسير كثير من أطروحات التراث أو تأويلها، بحيث يقارب بها الفكر المعاصر أو يقارنه، فإذا تم هذا فإن عجلة التغيير ستدور بالاتجاه المنشود.

ومع أن الجميع يرددون مقولة الإمام مالك الشهيرة: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»؛ ومع ظهور هذا الذي صلح به أولها، غير أن

الرجوع إلى منهجية القراءة وإعادة بناء المدارك الإنسانية بقراءة الوحي والكون، لم يأخذ حظه اللائق به من حركات الإصلاح والتجديد، والذين تنبهوا إلى وجوب انطلاق حركات التجديد من إعادة قراءة القرآن الكريم واجهتهم جملة من المشكلات: مثل علاقة القرآن المجيد ببيئة الخطاب الأول والتنزيل، وعلاقته بالعلوم التي صيغت حول النص، وعرفت بعلوم القرآن مثل علم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وأسباب النزول والتفسير وغيرها: فإن هناك فهماً وفكراً تاريخياً ومركباً ثقافياً قد أسقط نفسه على نصوص الكتاب الكريم بذلك الفهم التاريخي، وجعلت أي فهم مغاير لذلك الفهم موضع شبهة واتهام، بأنه فهم تأويلي أو فردي أو لا يحتج به.

وبذلك لم يعد بمقدور حركات التجديد أن تدرك بأن عليها منذ البدء أن تصل إلى معرفة منهج لقراءة القرآن المجيد، كما لو أنه لم ينزل إلا عليها وفي عصرها، بحيث تتمكن من التعامل مع المتغيرات النوعية والجذرية في الفكر والمنهج والمعرفة والحياة تعاملاً ينطلق من القرآن ذاته، وإلى مرجعيته يعود. إذ إن هذه الأسئلة والتحديات التي تطرحها الحضارة العالمية الراهنة لا يمكن الإجابة عن جلها باجتهاد بشريّ، لا مستند له إلا القياس على أقوال الماضين، والتخريج على مذاهبهم، بل لا بد للإجابة عنها من الرجوع إلى القرآن المجيد ذاته فهو وحده الكفيل بتقديم ذلك النوع من الأجوبة الكونيّة والحلول الشافية المعجزة.

وليس المطلوب قراءة جديدة للقرآن الكريم تعتمد على المقاربة أو المقارنة أو التأويل، بل لا بد من تلاوة تستنطق القرآن ذاته إجاباته الشافية وحلوله لتحديات كل عصر وجيل وأسئلته، باعتباره الكتاب المنزل تبياناً لكل شيء إلى يوم القيامة، وحفظه وعصمته من التبديل والتغيير وكماله وتمامه، وإطلاقه أهم مسوغات ختم النبوة، وتوقف النبوات.

إنه لا يعتبر تجديداً للدين أن نجدد تراث أسلافنا، الذي يمثل خلاصة فهمهم وفكرهم في الدين، كما لا يعتبر تحديثاً تقليد الغرب ومتابعته في خطواته. بل يستمد التجديد حقيقته من إعادة تشكيل العقل المسلم، ووصل ما

انقطع بينه وبين كتاب الله، باعتباره المصدر المنشئ الوحيد مع الكون للفكر والمعرف والعقيدة والشريعة والمنهاج. وكذلك وصل ما انقطع بينه وبين سنة رسول الله ﷺ مع سائر معطيات عصر التنزيل والنبوة، باعتبار السنة والسيرة هي المصدر الوحيد المبين والمفسر -على سبيل الإلزام- للكتاب الكريم.

ومن هنا كانت إسلامية المعرفة قاعدة من أهم قواعد تجديد الدين، وإعادة بناء الأمة القطب، وإنتاج المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر؛ إذ أن إسلامية المعرفة تمثل البعد الغائب عن مشاريع التجديد، أو البعد الذي لم ينل من عناية مشاريع التجديد والإصلاح ما يستحقه. فإذا كرس المعهد نفسه للوقوف على هذه الثغرة، والعمل على استحضار هذا البعد الضروري، فليس في ذلك افتئات على أي أحد فرداً أو جماعة أو حركة، بل هو مرابطة على ثغرة يتوف على حمايتها والمرابطة عليها، سلامة سائر الثغور الأخرى.

وإذا كانت الحركات والمؤسسات الأخرى والتيارات الإسلامية الموازية قد شغلتها همومها اليومية وتحدياتها - وهي كثيرة - فيفترض فيها أن تحمد الله تعالى أن قيض لهذا الفريضة من يقف عليها، فعليها أن تعين وتعزز وتبارك وتسدد وترشد لتستفيد بالجهد المبذول، وتستثمر النتائج المرتقبة ولو بعد حين.

لقد فشل مشروع الحداثة أو التحديث في إطار التبعية للغرب، وكاد يسلم الراية بنفسه لفصائل الصحوة الإسلامية كما أطلقت عليها الدوائر الغربية في مستهل الثمانينات. ولكن الصحوة ظلت في معظم الأنحاء مشغولة بالامتداد والانتشار الأفقي. وفي بعض الأماكن اعتمدت على تراث الإصلاحيين التجديدي حتى استهلكته، ثم تلتفت يمنة ويسرة فإذا بعوائق التراث لا تقل خطورة عن عقبات المعاصرة، وها هي الصحوة قد بدأت مسيرة الفتور في معظم الأماكن، بل لقد بدأت مرحلة تراجع في أماكن أخرى، وذلك على خلاف سنة الله في رسالات الرسل، التي لا تتراجع بعد فترة اندفاعها الأول حتى تبلغ أهدافها. وفي ظل التراجع بدأت عمليات تلميع ونفض غبار عن مشاريع الحداثة خاصة اللادينية منها، وفجأة وجد الغرب نفسها حليفاً من جديد لأيتام الماركسية واللينينية وأمثالهم، فصار ينفخ فيهم، ويمنحهم أسباب

الحياة ليواجه بهم الصحوة أو المد الإسلامي، وبدأت الدراسات تتوالى عن مشروع الحداثة وأسباب فشله، تمهيداً لقذف الأمة به من جديد ولو على سبيل إشغالها، وتدمير ما قد يكون بقي لها من فاعلية وواقعية.

إنهم يحاولون أن يقنعوا الأمة المغلوبة على أمرها بأن مشروع التغريب التحديثي قد فشل لأسباب ينبغي العمل على استئصالها أهمها سببان:

السبب الأول: طبيعة العقلية المسلمة نفسها: فهذه العقلية بتكوينها وبنيتها، هي المسؤول الأول عن فشل المشروع الحضاري التغريبي في العالم الإسلامي.. فالعقلية الإسلامية، بمكوناتها التراثية، لم تفهمه، أو أنها فهمته فهماً خاطئاً فرفضته ولم تحسن استقباله، ولم تتقن تلقيه عن أهله، أو لم تتفاعل مع تفاعل الإنسان الغربي، أو غير ذلك من المعاذير، وإلا فهو -في نظر هؤلاء- من حيث طبيعته مشروع ناجح في ذاته لا مرية في ذلك، ونجاحه في أي زمان ومكان حتمية علمية؛ لأنه مشروع علمي وعالمي، يؤكد ذلك نجاحه في اليابان، وكوريا، والهند وسواها من بلدان العالم!

أما جريمة فشله أو إفشاله فهي مسؤولية العقل المسلم والثقافة الإسلامية التاريخية! فالتكوين العقلي للإنسان المسلم، وبنيته العقلية، وتركيبه النفسي، وتراثه الإسلامي، وتاريخية فكره، ولغويته، كل هذا ساهم في جريمة إفشال المشروع الحضاري التغريبي، ولذلك ينبغي أن يوضع العقل المسلم على طاولة التشريح الغربي لكشف علله واستئصال بعض أجزائه، وليبدأ بإعادة تشكيله من جديد. وهذا يقتضي قراءة ما يتصل به من ثقافة ومعرفة ومصادر ونظم وتراث وتاريخ ولغة، وانتقاء المداخل التي يمكن من خلالها طرح الفكر الغربي والتحضير لقبوله، وذلك بإسقاط الأجزاء التي حالت دون قبول المشروع التغريبي، وأحبطت فاعليته وتأثيره، فلم يؤتَ في المشرق الإسلامي ما آتاه من ثمار في الغرب النصراني، فلعل هذه المحاولة تنجح هذه المرة، ويستأنف المشروع التغريبي دورة تغريبية ناجحة في العالم الإسلامي.. ولذلك تفرغ كثير من الدارسين والباحثين الغربيين، ومن يدور في إطارهم الثقافي من المسلمين، إلى البحث في المداخل التي يمكن من خلالها التسلل إلى الفكر الإسلامي، والاستشهاد من الفكر الإسلامي نفسه -بخاصة في مجالات الأدب

والتاريخ والعلوم الإنسانية بعامة- على سلامة الفكر الغربي وصحته.

وهؤلاء يظنون أن المستشرقين لم ينجحوا النجاح المطلوب فيما يحاولون هم النجاح فيه، فهم يعتبرون أن المستشرقين وقيادات الحملات التغريبية الأولى لم يحسنوا قراءة التراث الإسلامي، وأن آلياتهم ووسائلهم لم تكن من التقدم، بحيث تمكنهم من التحليل التكويني للعقل المسلم، ولا التحليل البنيوي له، ولذلك امتلأت الأسواق بكتابات عن التراث والمعاصرة، وتكوين العقل العربي، وبنية العقل العربي واغتيال العقل العربي، وتكوين الفكر الإسلامي، وتاريخية الفكر الإسلامي، ونحو ذلك من كتابات وبحوث في هذا المجال. وفي اعتقادنا أن المستشرقين نجحوا -إلى حدّ بعيد- في إيجاد مناهج تفكير ومناخ ثقافي في الجامعات والمعاهد والمدارس، أنتج مثل هذا الاتجاه ورواده الذين يتابعون الرحلة من داخل العالم الإسلامي.

السبب الثاني: وقد يعتبر مكملاً للأول -عندهم- هو عدم التفات المستشرقين إلى أهمية توظيف المصطلحات الإسلامية والتراثية التوظيف المناسب، وإيجاد المداخل المطلوبة لنقل المفاهيم التغريبية إلى المسلمين. فإذا قدمت الاشتراكية مثلاً إلى الإنسان المسلم على أنها نظريات ماركس وإنجلز وأمثالهما، تردد العقل المسلم، بحكم تكوينه وبتأثير بنيته وميراثه الثقافي، في قبولها، ولكن يوم تقدم له النظرية نفسها بكل توابعها، وبسائر ما فيها على أنها لم تخرج عن فكر أبي ذر الغفاري وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- وطروحات ابن خلدون، أو يمكن أن تندرج تحت فقه الإمام فلان أو فلان، فسوف يسارع المسلم إلى قبولها وتبنّيها.

ويوم تطرح له فكرة الانضمام إلى الحركة الاشتراكية العالمية مثلاً، على أنها نضال وجهاد لمصلحة الفقراء البائسين والمحرومين ضد المستغلين والمستعمرين فسوف يقبلها، بخاصة إذا أكدوا له أن جذور هذه الدعوة التاريخية بدأت في الإسلام، وأن هناك حركات وأفكار رفعت الشعارات نفسها، وبذلك تعاد قراءة حركات الرفض والخروج، كحركة القرامطة والزنج من جديد، لتعطى بعداً مقصوداً في التاريخ الإسلامي، ولتلقى مجالاً للقبول، وكذلك عرض الديمقراطية على أنها الشورى والجمهورية على أنها الخلافة.. إلى آخر ذلك.

وعندما تدخل الأمة في هذا الضياع وتخرج عن نسقها الثقافي الإسلامي، ويمارس عليها التضليل الثقافي، ويقدم الفكر الغربي بكل جذوره الإغريقية الشركية والصليبية، ومدارسه الداروينية والفرويدية والماركسية والسارترية والاشتراكية والليبرالية، على أنه فكر الغزالي وابن رشد وابن سينا وابن خلدون، فسوف تجد مثل هذه الطروحات القبول عند العقل المسلم.

لذلك، نجد اليوم فريقاً من هؤلاء قد انصرف إلى الدراسات المتعمقة والمتخصصة في التاريخ والتراث الإسلاميين، وبدأت عمليات ربط كثير من الطروحات الفكرية -التي قد لا يجاوز عمر بعضها قرناً واحداً من الزمان- بمصادر إسلامية، وبدأت تغزو الساحة الإسلامية مصطلحات ملفقة مثل: يسار إسلامي، ويمين إسلامي، وبدأ فرز الصحابة والتابعين إلى ليبراليين، وديموقراطيين، واشتراكيين.. ونحو ذلك. وبدأت عملية إسقاط مفاهيم تراثية على بعض الأطروحات والأفكار الغربية الحديثة، للحصول لها على المشروعية التي يحملها المصطلح، فتقدم مثل هذه الآراء على أنها اجتهاد! ويعتبر الخروج والرفض تجديداً! وقد يلبس التبذل ثياب الفن.

وقضية المفهومات والأفكار تعتبر القضية ذات الخطورة الأهم، وتستحق البحث وحدها.

فماذا فعل المشروع الإسلامي؟

إن المشروع الإسلامي -بصورته التي قدّم بها- لم يعط البعد الفكري الاهتمام الذي يستحقه، وذلك من أسباب عجزه عن بلوغ الهدف واستمرار الأمراض الفكرية الفتاكة في الساحة مثل تحكم عقلية التقليد الجماعي والغفلة عن السنن، والتغافل عن عالمية الإسلام أو إساءة فهمها، كما أن المواجهة مع الخارج الإسلامي التي فرضت على القائمين على المشروع الإسلامي، لم تدع لهم مجالاً لإعطاء القضية الفكرية المساحة المطلوبة من الاهتمام، وبعد أن تركت تلك المواجهة رصيداً مهماً من الفقه الميداني، وكشفت عن خطورة القضية الفكرية وأهميتها، ومن خلال النظر أيضاً في أسباب فشل أطروحات المشروع التغريبي، تظهر الضرورة الإسلامية الملحة لهذه الفروض،

والضروريات الحضارية التي تستوجب طرح قضية: إصلاح مناهج الفكر وإسلامية المعرفة في محاولة لاستدراك المشروع الإسلامي المطروح لأسباب ضعفه واستكماله لأسباب القوة الفكرية. إن المشروع الفكري الثقافي، يحاول معالجة الأسباب الذاتية التي أدت إلى إصابة المشروعات السابقة وإفقادها قدرتها على بلوغ الأبعاد المطلوبة، حيث أنه يأخذ بعين الاعتبار المنطلقات الإسلامية الأساسية، والنظرة الشمولية وتحقيق التوازن والوسطية، وضبط النسب بين الأبعاد المختلفة.. وهذه القضايا بقدر ما هي ميزة للمشروع الفكري الثقافي المطروح، فإنها مسؤولية ضخمة؛ لأننا نزعم أن هذا المشروع الوسط يتوقف عليه مصير نهضة أمتنا وتقدمها في محاولتها لردم فجوة التخلف، واستئنافها دورة حضارية عالمية، لا تقف عند إنقاذ الأمة الإسلامية نفسها، وإعادة بنائها واستئناف حياتها الإسلامية، بل تتجاوز ذلك إلى إنقاذ الإنسانية المعذبة المهددة بالفناء، واتخاذ الأمة موقع الشهود الحضاري الذي هو جوهر رسالتها، وهذا لا يعني بحال من الأحوال الاستغناء أو العدول أو القفز فوق رصيد المشروعات الفكرية والإصلاحية السابقة، بل لا بد من تقويمها للإفادة من الجوانب الإيجابية فيها، والإفادة أيضاً من التجارب الميدانية للمشروعات الإسلامية النهضوية المتنوعة.

ما الذي تستطيع إسلامية المعرفة أن تقدمه للصحوة وللأمة وللعالم؟

إن هذا التساؤل تساؤل مشروع، وهو مهم يستحق الإجابة. إن إسلامية المعرفة تحاول أن تقدم للصحوة وللأمة وللعالم القرآن الكريم المجيد، باعتباره الكتاب الوحيد الذي يملك إنقاذ البشرية اليوم كلها، لا أمتنا - وحدها-.

فالقرآن العظيم -وحده- الذي يملك التصور المنهجي والمعرفي البديل على مستوى كوني، غير أن حملة القرآن لم يعانوا بعد هذا المأزق المنهجي المعرفي، ولم يدركوا خطورته، فالواقع الاقتصادي والاجتماعي والفكري أو مجمل الواقع الحضاري في الوسط من العالم ما بين المحيطين الأطلسي غرباً والهادي شرقاً، ما زال يعيش في تراثه الفكري، وتسيطر عليه عقلية الثنائيات

المتقابلة، وتخلفه الفكري والمعرفي يحولان بينه وبين القلق النفسي أو الفكري أن يخامراه، أو يجعلاه يحس بالحاجة إلى المنهجية أو المعرفية، والوسائط الكثيرة من تراثه في التفسير وعلوم القرآن وسواها تشكل مراجع ميسرة، لا تسمح له بالإحساس بالحاجة إلى المنهجية المعرفية في فهم القرآن أو التعامل معه.

وأما أولئك المتعاملون مع الفكر والثقافة المعاصرة، فإن طبيعة الفكر الغربي والثقافة الغربية قد علمتهم بأنها -وحدها- التي تفرز أزماتها وتصنع بدائلها، فلا تسمح بالاستيراد من خارج النسق الفكري والثقافي الغربيين.

وهنا يمكن أن نشير إلى سبب آخر من أسباب فشل بعض الداعين إلى الحداثة والمعاصرة، انطلاقاً من اتجاهات تيار المنظور الحضاري، ولو في إطار التجديد الإسلامي نفسه، وهو أن بنية واقعنا الإسلامي لم تتطور أو تتغير نوعياً، ولذلك فإن مظاهر الحداثة في عالمنا الإسلامي بقيت أشكالاً مستوردة، كالأفكار تماماً، وليست نابعة من ذات التجربة التاريخية والحضارية لهذه البلدان؛ فالخطاب الفكري والإسلامي والاجتماعي السائد لا تعوزه صفة المعاصرة، وإن انطلق من التراث أو استدعاه، فهو معاصر في إطاره وشكله، تراثي في مضمونه، ينبه إلى أن الذهن الصائغ لهذا الخطاب ما زال يعيش حالة التراث ومتلبساً بها، ومنفصلاً عن المستوى الفكري والمعرفي والمنهجي لعصره الذي ينتمي إليه في جسمه وأشيائه فحسب، ولأن صياغة هذا الخطاب لم يعانوا ما عاناه الآخرون في صناعة الحضارة العالمية الراهنة، فإنهم يظنون أن بالإمكان الفصل بين الفكرة والآلة؛ لأنهم لا يرافقوا ولادات الحاضرة العسيرة في أثناء فترات معاناة صنّاعها التوليد من الآلة البخارية إلى الثورة الصناعية إلى التكنولوجية إلى الاتصالية، وكيف كانت عقولهم وأفكارهم تعاد صياغتها في كل مرحلة صياغة متجددة، بحيث يسير التدرج العقلي جنباً إلى جنب مع التطور الحضاري، فإذا بلغ السقف المعرفي للحضارة المعاصرة حالة المنهجية والمعرفية، فإن أصحاب المعاناة في صناعة هذه الحضارة يستطيعون بسهولة ويسر أن يدركوا معنى المنهجية والمعرفية وضرورتهما، ومدى إمكان تأثيرهما في عمليات التجديد الفكري والمعرفي.

ولنتبين صدق هذه الدعوى، نستطيع أن ننظر في تأريخ العلوم المعاصرة طبيعية أو إنسانية أو اجتماعية، وفلسفتها، بخاصة فلسفة العلوم الطبيعية، لنتبين كيف كانت عمليات إعادة التشكيل العقلي والمعرفي تسير مع التشكيل الحضاري، وكيف كان التأثير المتبادل يجري بينهما حتى المأزق الأخير الذي دخلته الحضارة المعاصرة، حتى ليكاد المراقب أن يشعر أنهما، أي الحضارة المعاصرة، وسقفها الفكري والمعرفي، دخلا المأزق معاً. ولذلك تتعالى أصوات الاستغاثة التي تعلن فشل فكر الحداثة وما أدى إليه من تفكيك، وعجز فكر ما بعد الحداثة عن إحداث التركيب بل انضمامه إلى فكر التفكيك كذلك، فإذا كان فكر الحداثة قد فكك الدين والكون والطبيعة، فإن فكر ما بعد الحداثة قد فكك الإنسان ذاته، ولا تزال عملية التفكيك مستمرة، وهنا يبدو واضحاً عمق الأزمة وعمق الإحساس بها، والبحث عن بديل منهجي كوني ليساعد الإنسان على تركيب ما فكك.

ونحن في مدرسة إسلامية المعرفة ندرك أن الأزمة عالمية، وندرك أنه لا مخرج منها إلا كتاب الله الخالد المطلق، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو -وحده- الذي يحمل في ثنايا سوره وآياته المنهجية الكونية، القادرة على إعادة الصياغة الفلسفية لحضارة الإنسان المعاصرة. لكننا في الوقت ذاته ندرك أن القرآن الكريم بين أيدي الأمة، التي لم تواكب العالم وهو يصنع الحضارة المعاصرة للأسف. ولذلك فإنها لا تعاني من أزمة التخلف المزدوج؛ الفكري المعرفي والحضاري كذلك، لذلك فهي لا تستطيع أن تدرك عظمة القرآن المجيد على مستوى عصرها، كما لا تستطيع أن تكتشف الإمكانات الكامنة فيه، ولا تستطيع القيام بحسن تقديمه إلى عالم اليوم وفي مستوى السقف المعرفي والحضاري لهذا العالم. ولذلك فهي تستعيد الوعي التراثي عليه.

والذين يدركون الأزمة -من الغربيين- ويبحثون لها عن حل لا يستطيعون أن يكتشفوا ما في القرآن من منهجية كونية، وحين يقاربون القرآن الكريم فإنهم يقاربونه باعتباره كتاباً دينياً، وهم قد فككوا الدين منذ وقت طويل، ومنعوا أي اتصال بينه وبين العلم والمعرفة والمنهج، ولذلك فإنهم يبحثون عن المنهجية

المعرفية الكونية البديلة، سالكين لكل السبل الفلسفية المعروفة لديهم، منقبين في تراث الإنسانية -كلها- إلا الإسلام، فإنهم لا يقاربونه إلا كما يقاربون أي خصم أو عدو أو غريم قديم.

إن الأمر يكاد يشبه ما انطوت عليه أراضينا من كنوز طبيعية، فإن المعادن التي طوت أراضينا عليها رمالها، لم نكتشفها بأنفسنا لتخلفنا، وبقيت كامنة حتى اكتشفها الآخرون بعد أن تقدموا وأدركوا ضرورتها لحضارتهم، وما تزال مقدراتنا بأيديهم لم نستطع أن نتجاوز أزمتنا الحضارية، أو نتحول بما اكتشف في أراضينا إلى شريك حضاري مع الغير، بل لقد زادت تبعيتنا، وتراكم تراجعنا وتخلفنا. ومنهجية القرآن المعرفية الكونية كامنة فيه، لا يسمح سقفنا المعرفي والحضاري لنا باكتشافها، وما نكتشفه منها سرعان ما يصادره علينا تراث هائل متراكم عبر القرون من التفسير وعلوم القرآن التراثية، ليعيد إنتاجه تراثاً يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فاعلاً أو متألقاً، بحيث يوجد دافعية حضارية، أو يحقق فاعلية، والآخرون يحول بينهم وبين القرآن المجيد إرث تاريخي متنوع، مشتمل على إسرائيليات الماضي والحاضر، ومخزون الذاكرة التاريخية المعادي لكل ما يمت إلى الإسلام بصلة، كما أن فترات الاستعمار والاستكبار والتعالي بالمركزية الأوروبية أو الغربية أو البيضاء، تركت كماً هائلاً من المشكلات جددت كل عوامل التدابر والتعادي والصراع بينهم وبين أهل القرآن، لتضع مزيداً من الحجب بين الغرب المأزوم والقرآن الشافي، بل ها هو الغرب ممثلاً بقاعدته في قلب الوطن العربي: إسرائيل، وأجهزة النظام الدولي الجديد ووسائله، تنظر إلى الإسلام والمسلمين في كل مكان -والقرآن ليس ببعيد عن هذه النظرة- أنهم المهددون للحضارة الإنسانية المعاصرة، وصار القرآن يقرن بالإرهاب والتطرف والتهديد، في الوقت الذي يسحقون حملته في كل مكان، وتطأ الدبابات رقابهم، ويحرض العالم -كله- على استئصالهم، بل إن تطبيع العلاقات في إطار الشرق أوسطية، لا يمكن أن يتم -في نظرهم- إلا بعد استبعاد آيات معينة من القرآن الكريم عن التداول، يتقن الذين ألفوا تحريف الكلم عن مواضعه اختيارها ورصدها، لتفريغ ما في القرآن من قدرة وفاعلية، ودفع

المسلمين إلى قراءته عضين؛ أعضاء مفرقة وأجزاء، بحيث لا تكتشف منهجيته، ولا سنن نظمه ولا قواعد أسلوبه، ليبقى المسلمون في تخلفهم، ويبقى القرآن المجيد كتاباً لأمواتهم لا لأحيائهم، ولآخرتهم لا لدنياهم.

ولو أدرك هؤلاء حجم الجريمة التي يمارسونها بحق البشرية، وهم يمارسون عمليات حرمانها وحجبها عن القرآن الكريم، وتأخير البشرية عن اكتشافه، ومعالجة أمراضها به -لقتلوا أنفسهم- فذلك خير لهم وأجدى على البشرية، لأنه قد يقلل شيئاً من الحواجز بين القرآن المجيد والبشرية المعذبة.

إن إسلامية المعرفة تحاول أن تقوم بمهمة مزدوجة في غاية الثقل والتعقيد، فهي تعمل على القضاء على حالة هجر المسلمين للقرآن الكريم، وإيجاد الوعي لدى الأمة المسلمة بخصائصه المنهجية والمعرفية، لتتعلم كيف تقرؤه على مستوى عصرها، وكيف تجمع بين قراءته وقراءة الكون لتحافظ على نفسها وكيانها من عمليات التذويب التي تمارسها المركزية الغربية وهي تحاول أن تعيد تفصيل العالم وبناءه من جديد على مستوى رؤيتها وقبضتها، لأن إسلامية المعرفة تدرك أن من غير الممكن المحافظة على أمة القرآن بمنطق ماضوي سكوني أمام محاولات استحواذ المركز الدولي الغربي المهيمن، الذي يرى في النسق المعرفي الإسلامي أو بقاياه نقيضاً لنسق التطور الحضاري الوضعي القائم على تركيز فائض القيمة لدى الطبقات المهيمنة، والهيمنة على قوة عمل الآخرين ومواردهم وتسخيرها لصالح المركز. ولذلك فهو يحاول بكل قواه محاصرة الإسلام وتذويبه لو استطاع؛ فأية محاولة لتطبيق الشريعة تمثل -في نظره- عدواناً على الحضارة الإنسانية المعاصرة يجب أن تمنع بكل الوسائل بما فيها الانقلابات العسكرية والثورات المسلحة. وكل مؤازرة للعمل الإسلامي بأي وجه من الوجوه تعتبر تعزيزاً للإرهاب ومؤازرة للتطرف!! ولذلك فلا بد من تجفيف منابع العمل الإسلامي، وسدّ أي منفذ من المنافذ التي يمكن للإسلام -بأي معنى وبأي وجه- أن يتنفس منه!

وفي ظل هذه الهجمة الظالمة لم يعد أولئك قادرين على التفريق بين متطرف ومعتدل، مستقيم أو منحرف. فالمعركة تدور حتى على مستوى الاسم

والشكل والصورة، فكل ما يمت إلى الإسلام بصلة يجب أن يباد ويدمر، فهو يضرب من يسميه بالمتطرف، فإذا انتصر له، أو احتج على ما جرى له من وصفه بنفسه بالمعتدل صار ذلك المعتدل متطرفاً، كذلك يستحق أن يبطش به، لأن الهدف البعيد أن لا يبقى على ظهرها من المسلمين ديار، وأن لا تبقى للإسلام أية آثار.

وإسلامية المعرفة إذ تخوض معركتها في الداخل الإسلامي لتحقيق ما أشرنا إليه، تحاول -في الوقت ذاته- أن تعمل على صياغة خطاب الإسلام العالمي، وتحاول أن تساعد العالم المأزوم على اكتشاف علاجه ودوائه وشفائه بالقرآن الكريم ومنهجيته المعرفية، وأن تعمل على فك الارتباط بين الإنجاز العلمي الحضاري البشري وخلفياته الفلسفية الوضعية، لتتمكن البشرية من إعادة الاتصال بين العلوم والمعرفة والقيم، وتوظيف العلوم والمعارف، التي بلغتها البشرية في منهجية معرفية إسلامية تؤدي إلى أسلمة الإحالات الفلسفية للنظريات العلمية، نافية عنها البعد الوضعي، معيدة صياغتها في إطار بعدها الكوني الذي يشتمل على الغائية الإلهية في الكون والحياة والحركة.

هنا تبدو واضحة أهمية إسلامية المعرفة وضرورتها لا على المستوى الإسلامي -وحده- بل على المستوى العالمي كله. وهذا يوضح لمَ قامت هذه القضية المنهجية المعرفية على دعائمها الستة وهي:

1- بناء النظام المعرفي الإسلامي المعاصر.

2- إعادة تشكيل وبناء المنهجية المعرفية القرآنية.

3- بناء مناهج التعامل مع القرآن الكريم بوصفه مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة.

4- بناء مناهج التعامل مع السنة النبوية المطهرة بوصفها مصدراً للفكر والمعرفة والحضارة.

5- بناء مناهج التعامل مع التراث الإسلامي لتجاوز فترات التقليد والانقطاع فيه.

6- بناء مناهج التعامل مع التراث الإنساني المعاصر للتواصل مع الفكر

والحضارة الإنسانيتين، وتجاوز أسباب قصورهما وأزماتهما.

إن أهمية هذه القضية، بل ضرورتها تجع الأساتذة والعلماء والمفكرين وطلاب الدراسات العليا بخاصة، أمام واجباتهم الرسالية وفي مواجهة الدور الخطير الذي عليهم أن يضطلعوا به، وتجعل من البحث العلمي والمعرفي رسالة، وتجعل من الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي قواعد ومنطلقات نهضة حقيقية قرآنية، تستطيع أن تخرج عالم اليوم بالقرآن من الظلمات إلى النور، وتضع البشرية من جديد على صراط العزيز الحميد ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [إبراهيم: 1-3].